رحلة الى الجنوب:

مـــــدن الملـح تفـيق مـن لـيلهـــا الـطـــويل

الجنوب يعني الكثير. الذاكرة تحفظ لغة الجنوب المصنوعة من أهوار وجاموس وحضارات بائدة وفرق إسلامية وأديان، وفقر نما عبر تاريخ طويل. الجنوب هو البصرة والناصرية والعمارة والسماوة المشمورة على اطراف بادية السعودية. ومن الجنوب توغلت القوات الأميركية والبريطانية لتسقط أعتى نظام شرق أوسطي عرف بقسوته الفائقة. مدن مثل البصرة والناصرية والزبير والعمارة ليست غريبة علي. كانت بضعة من الشباب والمراهقة. وها أنا بعد رحلة طويلة في العالم اعود اليها. وأمس ليس كاليوم، اذ جرت قصص وتناثرت احلام، ولامست اشواك الحقائق لب الخيالات. سميت هذا الصباح صباح الجنوب. وحين خرجت بنا السيارة انا وأخي من تخوم بغداد أحسست انني اعود سنوات الى الوراء. نحن ذاهبون الى الناصرية، زوجة اخي من هنالك، وحين سألني مرافقته لجلبها من الأهل وافقت في الحال. هي فرصة لا تعوض بالنسبة لي، فقد زرت الناصرية قبل خمس وعشرين سنة.

شاكـر الأنبـاري

الرحلة الى الناصرية عودة الى ايام الشباب والسذاجة في استقراء الغيب. تلك ايضا حقبة سوداء من الحروب والارهاب السياسي والرعب الشامل الذي عاشه العراق في عقد الثمانينيات. مطلع الشمس يوحي دائما بالجنوب. كان جدي يدعو الريح الهابة من هناك بـ(الشرجي). وكانت عادة ما تكون رطبة محملة بالمطر. مواطنو تلك المناطق يدعون ايضا بـ(الشرجية)، وتحريفها يتحول الى (شروكي) وهي صفة فيها شتم وتحقير.

ما ان وصلنا الصويرة، وهي بلدة صغيرة على أطراف بغداد، حتى لمع اسم عبد الكريم قاسم في الذاكرة. انه قائد ثورة ١٤ تموز التي قضت على النظام الملكي وأسست للجمهورية، كما أسست في ذات الوقت لانقلابات متلاحقة عصفت بالعراق. امتلأ الشارع بالمؤامرات والتصفيات والدسائس السياسية، وأصبح العسكر هم المتحكمون بمصير الدولة. عبد الكريم قاسم يتحدر من أب سني وأم شيعية، وحين اغتيل من قبل البعثيين في عام ثلاثة وستين شاعت اسطورة بين العوام ان الروس الصقوا صورته على وجه القمر. الصويرة بلد الزعيم، وكل مدينة او بلدة جنوبية تذكر المرء بشخص ما، فنان او كاتب او روائي او ملحن، حيث عرف ابناء الجنوب بنشاطهم في هذه المجالات، خاصة ان الفكر اليساري كان فاشيا في مدن الجنوب، ربما بسبب الفقر المدقع.

الجنوب حاضنة للتمرد التاريخي الذي طبع هذا الجزء من العراق. ابناؤه عادة ما يكونون وقودا للحروب، مثلما جرى في الحرب العراقية الايرانية. لا اعتقد ان بيتا في الجنوب يخلو من قتيل حرب او رقيد مقبرة جماعية أو سجين سياسي. قيل ان بعض العوائل ابيد ابناؤها جميعاً. طريق الجنوب اذن طريق الى الجلجلة.

عراق اليوم ليس عراق الثمانينيات، فليس هناك نقاط تفتيش ولا جيش عراقي ولا حرس جمهوري. الطريق مفتوحة على مديات من الأرض اليباب، والحرارة الخانقة، والقرى ذات البيوت الطينية، وأجمات الشوك والطرفاء وهي تنتشر في حقول شاسعة خالية من الزرع. اليوم ما ان يفكر المرء بمدن الجنوب حتى يحضر اسم الحركات الاسلامية، فهي تتحكم بمصير تلك المدن ولها ثقل كبير بين المواطنين. سبب هذا معروف، فما ان انهارت الدولة العراقية، ومع غياب الأحزاب السياسية بعد ضربها داخل العراق بقوة، وتحولها الى احزاب مناف، لم يجد المواطن البسيط حوله سوى المؤسسة الدينية. في المدن السنية وجد الجامع ورجل الدين وشيخ العشيرة، وفي المدن الشيعية المرجعية والحركات الدائرة في فلكها. وهكذا برز اسم حزب الدعوة والمجلس الأعلى للثورة الاسلامية في العراق وجماعة السيد مقتدى الصدر وثأر الله وحزب الله، وعشرات من المنظمات الدينية الصغيرة التي راحت تقيم نظاما الهيا في المدن والبلدات، كل حسب توجهاته. ومع غياب الحزب الشيوعي العراقي عن ساحة الفعل السياسي، وحل حزب البعث، وتلاشي الفكر القومي المنتفخ بالشعارات والخطابة، اتجهت القوى الشابة الى شيوخ العشائر والمرجعيات الدينية وتم ضبط الأمن وحراسة المنشآت من السرقة. بعض هذه الحركات سرعان ما بدأت ايضا بتطبيق ايديولوجيتها المتزمتة فمنعت الخمور وبدأت بمراقبة النساء وفرضت الحجاب وعقدت محاكم لتطبيق ذلك. ثم انتشرت الميليشيات المسلحة وحلت محل الدولة الغائبة طوال الأشهر التسعة تقريبا التي اعقبت سقوط نظام صدام حسين.

مظاهر التغيرات الدراماتيكية لم تظهر على مدن الجنوب، اذ لا يلمس المشاهد اي اثر للاعمار، ورغم ان المدن الجنوبية عموما تتمتع بشيء من الاستقرار الأمني، الا ان ذلك لم يجعل لها اي امتياز في حركة البناء. القرى الطينية نفسها، تتناثر على جانبي الطريق، بيوتها تتكوم بعضها على بعض، وهنا يعيش الفلاح مع جاموسه ومواشيه كما كان اجداده يفعلون قبل مئات السنين. بعض القرى لم تصلها الكهرباء حتى الآن، اما الطرق المعبدة والماء المعقم والهاتف فتتحول الى خرافات في الأذهان. مدن وأقضية ونواح مثل الرفاعي والحي وقلعة سكر والشطرة تبدو مثل مقابر مهجورة. بيوت من الطابوق وبرك للملح وشوارع ترابية ونادرا ما يرى فيها أثر للأشجار والحدائق، وهذه المدن اعطت العراق ملحنين وكتابا وفنانين أصبحوا من المشاهير مثل الملحن طالب القرغلي والروائي عبد الرحمن مجيد الربيعي والشاعر الشعبي رياض النعماني والمطرب المعروف حسين نعمة والكاتب كاظم جهاد والعشرات من الأسماء. على جانبي الطريق كنا نشاهد الملاحات يغترفن المسحوق الأبيض ويجمعنه قرب حوافي البرك الملحية، بعباءاتهن السود وجلساتهن الخانعة الملتصقة بالأرض. يبدين مثل شخصيات افلام بازوليني. ينتظرن بصبر نسائي زبائن يبزغون فجأة من البيد والحقول والقرى المجاورة.

الأفق مغبر ينيخ على ارض سبخة تنمو فيها اشجار الطرفاء والطرطيع، وعلى حين غرة تنتصب نخيلات بعيدة عجاف اشبه بشاهد على خراب ارض وبلد وحضارات. من اين انبثق ظل حمورابي وكيف ساح جلجامش بحثا عن عشبة الخلود؟ وأنانا اين تقيم ومن قتل تموزي؟ وعشتار تندب حبيبها لينهض من العالم السفلي. رائحة السمك والملح، والمطاعم على جانبي الطريق لا تنتمي الى عصرنا. تقدم وجبات من اللحم المشوي والرز والمرق في قدور بادية للعيان، تفتقر الى ابسط مقومات النظافة. ولولا قناني الكولا والميراندا والسفن آب، لكان المسافر يضطر الى شرب مياه مجة عطنة رغم ما بها من ثلج. الفرات ودجلة يخترقان هذه الأصقاع لكن نسبة التلوث عالية. جميع المدن العراقية اليوم، بما فيها بغداد، تصب موادها الكيمياوية ونفاياتها في هذين النهرين. المياه في دجلة والفرات بلغت مستويات خرافية في هذه السنة، بعد ان رفعت عنهما الحواجز والسدود، فالرئيس كان يخنق مدن الجنوب حتى في الماء، ولهذا قام بحملة وطنية لتجفيف الأهوار، تلك المسطحات المائية التي تغطي اغلب منطقة الجنوب. قام ايضا بمنع زراعة الرز وهو محصول يعتمد عليه الفلاح بشكل اساس، وبدأ العراق يستورد الرز من تايلاند وفيتنام وأميركا. اما السمك فأصبح عملة نادرة. هاجر اثر ذلك مئات الآلاف من الفلاحين الى المدن ليضاف الى المدينة عبء آخر.

في الطريق من الرمادي في الغرب نحو بغداد العاصمة يرى المرء الجيش الأميركي كل كيلو متر تقريبا، اما كرابا ثابتة او دوريات سيارة، لكن الطريق من بغداد الى الناصرية يخلو منهم تقريبا. البلد في هذه النواحي يبدو خاليا من القوات الأجنبية. لم نصادف اي اثر لعساكر، وهناك فقط مفارز من الجيش العراقي والشرطة، حتى الميليشيات المسلحة اختفت الآن بعد ان تشكلت الدولة العراقية بمؤسساتها الأمنية. ليس من المستغرب ان تعتبر المناطق الجنوبية آمنة للاميركان، فالاضطهاد الذي وقع على هذا الجزء من العراق على يد النظام السابق كان رهيبا. صار المواطن يشعر بنفسه حرا، سواء عبر ممارسة طقوسه او انتمائه الى الحزب الذي يريد، عدا عدم خضوعه لأية سلطة مركزية تفرض عليه توجهاتها.

قارنت ما رأيته قبل خمس وعشرين سنة واليوم، في الطريق نفسه، لكنني لم اجد فرقا. لم يتغير شيء، على العكس، اهترأت الشوارع وبادت البنايات وعتقت السيارات وازدادت الكآبة في الوجوه. الحرية في كل ذرة هواء وزقاق وتعبير وجه. هذا الخراب لم يكن وليد اللحظة، انه نتاج عشرات السنين من الحروب والتمييز الطائفي والمقابر الجماعية والتطهير العرقي الذي مارسه حزب البعث ونظام صدام حسين. توج ذلك ايضا بعشر سنوات من الحصار الدولي، عانى منه المواطن البسيط فقط. هذا الجزء من الوطن لم يفقد اي امتيازات اثر سقوط النظام، على العكس لم يربح سوى حريته وان جاءت متوجة بالخراب والفقر والتخلف. لم يفقدوا سوى اغلالهم على حد تعبير ماركس.

للناصرية عادة وقع ضخم في الذهن العراقي. هناك عشرات الأغاني تذكر مدينة الناصرية، وعلى حافاتها تقع الأهوار المشهورة بالبط البري والأساطير وحكايات الأمراء الاقطاعيين في الزمن الغابر. انها المشحوف السومري والسمك المجفف والقصب والبردي والخنازير البرية. تعتبر الأهوار محمية طبيعية ذات روح سياحية وجمالية تستلهم الشعر والخيال والحكي. مظفر النواب كتب قصائد عديدة عن فلاح الهور وآل ازيرج والبندقية المحشوة دائما، وكذلك استلهمه سعدي يوسف في قصائد ماضية. اما الصحافي شمران الياسري المعروف بين العراقيين بأبو كاطع، فكتب رواية من ثلاثة أجزاء عن واقع الأهوار. والناصرية ايضا بلد الشاعر الجنوبي الحبوبي، وله تمثال اليوم في ساحة الحبوبي وسط الناصرية. عاش في بداية القرن العشرين وشارك في ثورة العشرين وكتب قصائد وطنية تحفظها الاجيال.

الغريب ان مدن الجنوب لم تطلها يد الاعمار حتى اللحظة، رغم انها تتمتع بالأمان ولا تنقطع فيها الكهرباء مثل باقي مدن العراق، ومن غرائب هذا الشعب ايضا، ان المواطنين هنا يخرجون في تظاهرات تطالب بتغيير هذا المحافظ او ذاك، لكنها لا تخرج للمطالبة بتبليط الشوارع وترميم المستشفيات والمدارس والمنشآت الحكومية، وكأن ثقل الآيديولوجيا اكبر من الحياة نفسها. لم ار امرأة سافرة في اغلب المدن التي توقفنا فيها وكذلك في مدينة الناصرية، العباءة العراقية السوداء المعروفة هي الفاشية كلباس للنساء هنا، بالنسبة للفلاحات والقرويات يتحولن عبر هذا الزي الأسود الى غربان بشرية ذات وجوه كالحة. هذه ليست الناصرية التي اعرفها. مدينة شبح. خارجة من انقاض التاريخ، فالأبنية كالحة، والأشجار ذابلة، والشوارع امتلأت بالحفر، والكورنيش الجميل الممتد على ضفتي الفرات اصبح اطلالا.

كانت التماثيل التي توسطت ذات يوم حانات النهر تركت مهجورة وسط ارض شاحبة. امتلات الضفاف بالنفايات. الرجل المنتصب وسط مشحوفه السومري كان ينظر الى امواج الفرات بحسرة. اختفت الجميلات من الشوارع وغاب سمار الليل بأغانيهم ونشواتهم وموالاتهم الجنوبية المستوحاة من قيثارات اوروك وبابل وآشور. الخمور حرمت في الناصرية تماما ودار الحديث عن اشخاص قتلوا ما ان مارسوا مهنة بيع الخمور. على الكورنيش وحده وجدت ذات يوم كما اخبرني اخ زوجة اخي المتحدث اللبق، اكثر من عشرين حانة، تفتح ابوابها منذ الظهيرة ولا تغلق الا في ساعة متأخرة من الليل. نتيجة للعزلة والتهميش والانقطاع عن العالم ضربت اغلب مدن العراق موجة تطهرية تأخذ من الدين قشوره حسب. تقاليد العزلة سماها أخي. والانسان العادي لا يجد لها بديلا. هو لم ير شيئا في حياته سوى القهر والذل والموت. الموت اليف بما فيه الكفاية، ومطلب أحيانا في دنيا الشقاء.

في ساحة الحبوبي التي يحتل وسطها تمثال الشاعر، كان ثمة بارات وباعة خمور وكافتيريات تضفي نكهة على المدينة، لكنها اليوم تحولت الى محال مهترئة وباعة عصير ومقاه قديمة التخوت يسهر فيها الشباب العاطل عن العمل حتى الواحدة ليلا. بعد سقوط النظام انتشرت ظاهرة الصور، فأينما يدير المرء وجهه يلاقي صورا لرجال دين، وشعارات ولافتات. اليوم بدأت الصور تختفي وندرت اللافتات، وغاب المسلحون المتدينون. بدأت الشرطة العراقية تمسك النظام بيديها، ومنعت أي مظاهر مسلحة من قبل الحركات الدينية. كما ان المواطنين هنا بدأوا ينصرفون قليلا قليلا عن الحركات الدينية، ويتجهون الى الدولة، وأصبحت الوظيفة مرغوبة اكثر من ذي قبل. اول مرة في تاريخ العراق يصبح الشرطي محبوبا من قبل المواطن العادي. اصبح عنوان أمان ومظهرا من مظاهر العهد الجديد.

كل فرد هنا في الناصرية له قصة مع النظام السابق، اذ كان يستقدم مدراء الأمن والمخابرات والفروع الحزبية من المناطق السنية الموالية نسبيا، ويطلق أيديهم في حكم المدن. هؤلاء كانوا يجلبون معهم جيوشا من المقاولين والمتعهدين والتجار لانجاز اعمال المدن، ويشاركونهم احيانا في الغنائم. خسرت المناطق الغربية من العراق امتيازاتها في العهد الجديد. المال والسلطة. لم يربح الجنوب المال الا أنه اخفف من هيمنة السلطة التي لا تحبه. كان لأهل الجنوب المقابر الجماعية والقتل والتعذيب والتهميش لهذا لم يأسفوا على زوال الطاغية وعهده البائد. بعد انتفاضة التسعينيات ومشاركة ملايين العراقيين في الثورة ضد النظام، كتبت صحيفة الثورة التي كان يصدرها حزب البعث ان اهل الجنوب اصلهم من الهند، وليسوا عراقيين وهم عديمو شرف ونخوة، وعرضت الفضائيات بعد سقوط صدام صورا مرعبة لعلي حسن المجيد ومحمد حمزة الزبيدي والمسؤولين الكبار وهم يركلون المواطنين بأحذيتهم ويوجهون مسدساتهم الى الرؤوس. سموهم الغوغاء، ولا يزال اهل الناصرية يتندرون على التسمية.

المستشفى العام اضخم بناية في المدينة، سمي سابقا مستشفى صدام. اليوم وتأكيدا لديموقراطية الوضع اصبحوا يسمونه مستشفى الياور، نسبة الى غازي عجيل الياور رئيس جمهورية العراق الجديد. الفرق ان التسمية السابقة فرضت بأمر سلطوي وتسمية اليوم جاءت من الشعب تندرا ونكاية ربما. ورغم الفقر وقلة فرص العمل الا ان اغلب الناس متفائلون، فهم حسب رأيهم يعيشون حياة ثانية. من لم يمت في الحروب المتعاقبة قتل في الانتفاضة الشعبانية، ومن لم يقتل على ايدي اجهزة الأمن وتشرد في المنفى رجع الى أهله وهو يسمع قصصا اغرب من الخيال، عن ايام الحصار والاستدعاءات الأمنية والعقوبات الجماعية وقصص ثوار الأهوار الذين شاركوا قوات الحلفاء في الاستيلاء على المدن وادارتها. الوحدة الايطالية العاملة في الناصرية منكفئة في قاعدتها، فلا حاجة لها في المدينة. والمدينة ليلا سابحة في النور، وهو امر نادر الحدوث حتى في بغداد العاصمة. حافظ اهالي الناصرية على محطة الكهرباء العملاقة اثناء سقوط النظام، وحموها من التخريب. المحطة تشتغل بالغاز السائل وهي توفر حاجة المدينة وتفيض.

قبل اسبوع حاولت السلطة المركزية اقتسام الكهرباء مع المحافظات الوسطى لكن أهل المدينة عارضوا ذلك. خرجت تظاهرات ترفض الفكرة من أساسها. يقول الأهالي لم تحافظ المدن الثانية على خطوط الكهرباء مثلما فعلنا؟ فعلا، تم نهب مئات الكيلومترات من اسلاك الضغط العالي في مدن الرمادي وسامراء وتكريت، اذ كانت تصهر من قبل عصابات النهب وتباع في الأسواق المجاورة. لهذا حين خرجنا الى مدينة الناصرية في الساعة الواحدة ليلا كانت أضواء المصابيح تنعكس على مويجات الفرات لتشكل اعمدة من الزخارف الرائعة. عدم انقطاع الكهرباء لم يخف المنظر الكئيب لهذه المدينة في ليل الصيف. ثمة حزن في الهواء، وثمة قصص تروى عن الذين غابوا وانقطعت أخبارهم. مقر مكتب الصدر كان قائما على ضفاف الفرات، وصورة للسيد مقتدى الصدر تحتل الواجهة. خلال المواجهات الدامية التي حصلت بين انصار الصدر وقوات الائتلاف والشرطة العراقية في كربلاء والنجف والثورة والبصرة والناصرية، قامت القوات الايطالية بتفجير المقر، لكن اعيد بناؤه بعد يوم واحد فقط. حركة مقتدى الصدر الآن اصبح حالها حال الحركات الدينية والسياسية الأخرى. نقل السلطة الى الحكومة العراقية الجديدة غيّر كثيرا من المفاهيم في العراق. لم يشأ السيد مقتدى الصدر وأنصاره من جيش المهدي ان يدخلوا في مواجهات مع الحرس الوطني العراقي او الشرطة، عكس الجماعات المتطرفة المنتشرة في الغرب والوسط. هدوء الجنوب النسبي سهل تنامي السلطة العراقية، وفي الوقت نفسه خفف كثيرا من تواجد القوات الأجنبية. (البارادوكس) هذا يصعب فهمه من قبل انصار النظام المخلوع والمتطرفين الوهابيين والقادمين من خلف الحدود.

على طول الطريق الممتد بين بغداد والناصرية وهو يبلغ اكثر من اربعمئة كيلو متر، لم نلمح اي قافلة للقوات الأجنبية، لا في الذهاب ولا في الأياب. المواطن هنا يحس بذلك، لهذا فهو متفائل جدا في العهد الجديد. ان مظهر البؤس الطاغي على مدن الجنوب يجعل الانسان يستعر غيظا على النظام السابق، اذ لم تضف ولا بلاطة واحدة خلال خمس وعشرين سنة على تلك المدن. ما كان جديدا اهترأ دون ان يرتفع جديد في الأفق. طريق العودة لا يشبه طريق الذهاب، فالفضول الذي كان يستولي علي قبل التوغل جنوبا خلف وراءه خيبة شاسعة. مدن تتراجع وسط الغبار وسراب السبخ والملح، لتغور ثانية في لجة الجهل والتخلف، منغمرة بسراب حرارة تبلغ الخمسين درجة مئوية. نساء المالح غربان جاثمة على حوافي الطرق. الرعاة منشغلون مع الحمير والجاموس وأشواك الأرض. الأمكنة التي رأيتها قبل ربع قرن خلّفت وراءها قصصا مأساوية فقط. مدينة الناصرية ليست سوى نموذج للجنوب، فلا شيء واضحاً في الأفق. الترميم هنا لم يعد ينفع، لكن البناء صعب جدا.

انظار الجميع تتطلع الى بغداد، فالمعركة هناك، معركة دموية ومتعددة الأوجه، لكنها ستعيد العراق في النهاية الى قلب العالم، كما كان دائما.